جَامِعَة بَيروت العَرَبيَّة



المَدخل الإسْلامي للإيديُولُوجيَّة العَرَبيَّة

(نحوَ إيديُولوجيَّة عَربيَّة إسْلاميَّة)

الدكتور
محمّد علي أبو ريّان
أستاذ الفلسفة بجامِعَتي الاسكندريّة وبيروت العربيّة
وعميد كلية الآداب بجامِعَة بيروت العربيّة

١٩٧٩

جامعة بيروت العربية

المدخل الإسلامي للايديولوجية العربية

(نحو إيديولوجية عربية إسلامية)

الدكتور
محمد علي أبو ريان
أستاذ الفلسفة بجامعتي الاسكندرية وبيروت
وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية

١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُولُوا آمَنَّا بِٱللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

البقرة — ١٣٦

المَدخَل الإسلامي للإيديُولوجيّة العَربيّة
(نحوَ ايديُولوجيَة عَربيّة إسلاميَّة)

معنى الايديولوجية [١]

تضاربت الآراء منذ القرن الثامن عشر الى عصرنا هذا حول تحديد مدلول «الايديولوجية» والمعاني الذي ينطوي تحتهـــا هذا المصطلح بحكم اشتقاقه ؛ ونحن نتساءل عما اذا كان اللفظ يشير الى مجموعة من الافكار المجردة المستمدة من الاحساس كما يرى De Tracy

---

(١) Aïken (Henry), The Age of Ideology, Mentor Books, U. S. A., 1956

يصف المؤلف القرن السابع عشر بـــأنه عصر العقل ، والقرن الثامن عشر بأنه عصر نقد العقل ، اما القرن التاسع عشر فهو عصر الايديولوجية ويسم مذاهبه الفلسفية جميعاً بالطابع الايديولوجي .

Aron. (L.), Idéologie, Recherches Philosophiques (Vol. VI, 1936-1937, p. 65)

Barth (Hans), Wahrheit und Ideologie, Zurich, 1945.

كتاب شامل وجامع عن الايديولوجية

Goldmann (Lucien), Sciences Humaines et Philosophie, Paris, 1952

وينطوي الكتاب على محاولة لتعميق مضامين الموقف الماركسي =

واضع هذا المصطلح في القرن الثامن عشر أو أنه أريد به – في عصر نابليون – الدلالة على فئــات المعارضة السياسية لحكمه من بين الجمهوريين والثوريين ، أم أنه يشير إلى مجموعة الأفكار المعبرة عن مصالـــح الطبقة الاجتماعية كما يرى كارل ماركس وانجلز – وكيف أن الايديولوجية في نظره انما يقصد بهــا مجموعة الافكار التي تنطق باسم الطبقة البورجوازية ، والتي كانت – في نظره – لا تستقيم مع الماركسية أي مــع المادية الجدلية التي نصبها هو واتباعه علماً للطبيعة ؛ ومع ذلــك فقد أصبحت المادية الجدلية

Gurvitch (George), Sociologie de la Connaissance, Paris =

يعرض هذا الكتاب لجميــع الآراء مع اتجاه واضح الى الانطلاق من الفكر الماركسي

Marx (Karl) and Engels, The German Ideology, Berlin, 1932

ويشتمل هذا الكتاب على : مقدمة نقد الاقتصاد السياسي بقلم كارل ماركس – لودفج فيورباخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية بقلم انجلز

Moreno, Who Will Survive, New York, U. S. A.

يشتمل هذا الكتاب على فصل عن الايديولوجية

Picavets, Les Idéologues, Paris, 1891

Popper (Karl), The Open Society and Its Enemies, London, 1945

يهاجم كارل بوبر فكرة الايديولوجية

Parsons (Talcott), The Social Systems, Glencoe, 1951

وهو يبحث في الايديولوجية في الاتجـــاه المعارض لوجهة النظر الماركسية في العلوم الاجتماعية

E. of Philo.; Websters' Dict.; Voc. Philo., Lalande; Int. Ency. of Social Sciences

نفسها فيما بعد سلاحاً ايديولوجياً للطبقة العاملة ، وارتبطت بالعلم والمعرفة في نطاق التركيبات الفوقية الظاهرة .

والحقيقة أن الايديولوجية لا يمكن أن تتطابق مع العلم على أي صورة من الصور من حيث انها لا تخضع لمنطق العقل لانطوائها على وعي تاريخي يعبر عن وجدان الجماعات والشعوب ، وارتباطها بالسلوك في الحياة – وليس على فكرها النظري المجرد فحسب – بل عن ارتباط الموقف الفكري والشعوري بسلوك الأفراد والجماعات في خضم الحياة .

على أن مفكراً مثل أيكن Aiken يرى أنـه حتى الفكر الفلسفي النظري المجرد لا يعتبر ترفاً تحف به المخاطر ، بل هو في حقيقة الأمر عنصر لازم وضروري لا غنى عنه للانسان اذ هو ذو تأثير أيضاً على سلوك المـرء في مضمار الحياة ، (المقدمـة Age of Ideology P. VIII) ومـع هذا فنحن لا نتفق مـع هذا الرأي ذلـك لأن الفكر النظري قد ينحصر تأثيره المباشر في نطاق الصفوة من المفكرين ، وربما امتدت آثاره إلى الجمهور فيكون انتشاره بصورة مبتسرة مهزوزة كما حدث بالنسبة للوجودية في عصرنا هذا .

وقد أشار كارل مانهيم (في كتاب الايديولوجية واليوتوبيا) الى أن ثمة نوعين من الايديولوجية : فاسدة وهي التي ننعت بهـا آراء الخصوم فنقول : « إن ايديولوجيتهم فاسدة ولا تقوم على أسس صحيحة ، وأن اصحابها يعلنون غير مـا يبطنون من آراء

ويستترون وراء شعارات زائفة تخفي نواياهم الحقيقية حفاظاً على مصالحهم واطماعهم ، وينطبق مدلول هذه الإيديولوجية المذمومة على الايديولوجية النازية التي كانت تعلن على الملأ انها تعبئ الشعب الالماني لرفع الظلم الذي حاق به بعد هزيمته في الحرب العالمية الاولى والحفاظ على المجال الحيوي لهذا الشعب ، بينما كانت تخفي في بداية الامر طابعها العنصري والتوسعي . وينطبق هذا كله أيضاً على الايديولوجية الصهيونية التي تخطط للتحكم في المنطقة بل وفي سياسات العالم أجمع تحت ستار انشاء وطن قومي لليهود المستضعفين في الأرض ، كما ينطبق على ايديولوجية جنوب افريقيا وأيديولوجية البيض ضد السود في امريكا .

أما النوع الثاني من الايديولوجية فهو الذي يعبر عن التركيب أو البنية الفكرية لطبقة من الطبقات في عصر من العصور ، أو يشير الى الطريقة التي ينظر بها فرد أو جماعة الى عالم الواقع .

ولكن مفهوم الايديولوجية الآن قد اتسعت دائرته إلى حد كبير فاصبحت لا تعني طبقة دون أخرى بعد أن تحللت الطبقات الى فئات ، وتلاشى المفهوم الطبقي الماركسي مع ظهور عوامل وضغوط اجتماعية جديدة وشيوع افكار التحرر والسلام والعدل ومناداة الشعوب في كفاحها العادل ضد الاستعمار والتخلف بآراء ثورية سياسية واجتماعية واقتصادية تؤلف في مجموعها ايديولوجية خاصة لكل فريق من البشر ، بل إن انقسام العالم إلى شرق وغرب قد كشف عن ايديولوجية للغرب تقوم على أساس نظرية اقتصادية

خاصة تتبنى فكرة السوق الاوروبية المشتركة ، ونظرية اجتماعية وثقافية لهـا طابـع مميز يختلف عن اقتصاد الشرق الشيوعي ومفاهيمه ، وثقافته المكونة لإيديولوجيته .

وهناك بعد الغرب والشرق نجد مجموعة الدول النامية أو دول العالم الثالث ولها ايديولوجيتها الخاصة بها . ولا يزال كل تجمع أو فريق ممن ذكرناهم يبذل غاية جهده في مجال العلم والتكنولوجيا لدعم ايديولوجيته وتثبيت اركانها ، ويزعم أصحاب كل ايديولوجية انهم يتوخون النظرة العلمية والانسانية ، ويتمشون بطريقـة موضوعية مع العقل والمنطق ومبادىء العدالة ، بل وتحمل شعاراتهم الدعائية مـا يفيد أنهم مع الحق سائرون وعلى مستوى الخير سالكون ، وهذا كله لا ينفي ذاتية منطلقهم الذي يشجب أي أثر للموضوعية ، ومن ثم فانه كما يقول أحـد المفكرين : « إن صراع الايديولوجية المعاصرة انما يكشف عن زيف وتهـاوي الكثير من مبادئها مما لا يسمح بأن نضع معياراً نقيس به مدى صحتها أو صدقها ، فتظل في دائرة الاوهام والأساطير والاحلام تحتمل نوعاً من الصحة البراجماسية فحسب ، وذلك في حـالة تحققها ونجاحها بالقوة الغاشمة ، ومثال ذلك ما ادعاه الالمان من « أن المانيا فوق الجميع » وما ادعاه اليهود من « أنهم شعب الله المختار » ومـا ادعاه موسوليني من أنـه صاحب ميراث الحضارة الرومانية وأن البحر الابيض بحيرة إيطالية الخ ....

وقد انجز روبرت Robert Lane مؤخراً (وهو أحد الكتّاب

الامريكيين المعاصرين) كتاباً عن الايديولوجية السياسية[1] كشف فيه باسلوب علمي استبياني واحصائي — بعد دراسة قام بهـا في بيئة مكانية محدودة في الولايات المتحدة الامريكية — عن ثلاث اتجاهات في البحث عن الايديولوجية :

أ — الكشف عن الايديولوجية السياسية المتـــكاملة عند العاديين من البشر .

ب — وتقودنا حصيلة هذه الوقائــع الأولى إلى الكشف عن منابع الإيديولوجية وأصولهـــا في الثقافة وفي تجربة المواطن العادي وخبراته الذاتية ، حيث نتعرف على مصادرها وأسباب استمرارها بوجه عام .

جـ — واستناداً الى حصيلة (أ) ، (ب) نتجه للكشف عن الطرق والأساليب التي تساند بها الايديولوجية النظام السياسي القائم مهما كانت صبغته ، وكذلك النظام الاجـــتماعي .

ولكن هـــذا الاتجاه الجديد في دراسة الايديولوجيات عند (روبرت لين) يحاول فيه صاحبه اعتبار الايديولوجية السياسية المثل الوحيد والهــام لأنواع الايديولوجيات ، ثم يتدرج من مفهوم المواطن العادي لها الى أن يصل الى مصادر الايديولوجية ، وأخيراً الى

---

(1) Lane (Robert), Political Ideology, Free Press, New York, 1968

الكشف عن الأساليب التي تساند بها الايديولوجية النظام السياسي .

أما منهجنا في البحث فهـــو لا يقتصر على المفهوم السياسي للايديولوجية فحسب بل يستهدف الاحاطة بالمعنى العام للايديولوجية من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والاخلاقية والمزاجية ، وكل ما ينطوي عليه الشعور العام للمواطن من وعي ديناميكي بتاريخه متأثراً بالبيئة المكانية والبشرية ، ومؤثراً فيمن حوله من البشر ومتأثراً بهم . فقد أدرك علماء الاجتماع المعاصرين أن دراسة الايديولوجية لدى أي جماعة يجب أن تتجه الى رصد نسيج العلاقات المترابطة داخل الجماعة المدروسة بحيث نصل بعد هذه الدراسة العلائقية الى الكشف عن النسق الذي يحرك هذه الايديولوجية ، وقـــد اختصت المدرسة السوسيومترية بالقيام بمثل هذه الابحاث ولا سيما عند جورفيتش ، ومورينو .

ولما كان من العسير القيام بمثل هــذا البحث الميداني في مدة قصيرة ، فضلاً عن أهمية الدراسة الفلسفية والتاريخية في هــذا الموضوع ، لهذا فنحن نكتفي بعرض وجهة نظر مبدئية تعد كفرض إجرائي يصلح للتحقق الامبريقي في المستقبل ، ومع هذا فاننا نحس بأن الوقائع التي نعرضها انما نستشفها من خلال الوجدان العربي خلال التاريخ واستمداداً من أصوله وينابيعه الاولى .

وسيكون من السهل علينـــا أن نرصد المعطيات الايديولوجية في الوجدان العربي اذا ما وضعنا نصب أعيننا تعريفاً للايديولوجية يجمع الاتجاهات الصحيحة التي أشرنا اليها .

تعريف الايديولوجية :

الايديولوجية تنطوي على مجموعة من العقـــائد ، والافكار والتصورات والمشاعر والتقاليد والآمال والظروف الزمانية والمكانية التي تؤثر في أنماط السلوك للأمة وللجماعة . ومن ثم فلا بد من ملاحظة الارتباط الوثيق بين الفكر والعمل في مكونات الايديولوجية بصفة عامة والايديولوجية العربية التي نحن بصدد الكلام عنهـا بصفة خاصة .

ما هي الايديولوجية العربية :

ما هي الخطوط العريضة للايديولوجية العربية ، أو مجموعـة الافكار والقيم والآمال والاهداف التي تؤثر في سلوك المواطن العربي بقطع النظر عن الافكار والمعارضات الخاصة بالجماعات الصغرى المنطوية تحت التجمع العربي الكبير ، ومنهـا آراء الصفوة التي يمكن أن تشكل بذاتها ايديولوجية خاصة يعتنقها فريق من المثقفين ؟

ولكن مدار البحث في رسالتنا هذه هو التعرف على افكار المواطن العربي العادي ومشاعره وتصوراته وآماله في المستقبل ، تلك التي تحـــدد مسار تجربته الحيوية الواعية التي يرتبط فيها تراث الماضي بآمال المستقبل وأهدافه .

منهج البحث :

والأمر الذي لا شك فيه أن هذه المعطيات التي سنعرض لها

هي بعينها وقائع الوجدان العربي التي أمكن لنا استشفافها من خلال الاتصال المباشر ووسائل الإعلام ومراجعة أمهات كتب التراث ، ومتابعة الاحداث على مسرح الحياة العربية المعاصرة . وأخيراً فانها وقائع تنبع من كل وجدان عربي يشهد بهـا غير العربي ، وينطق بها العربي ويشعر بأنها احاسيس وأفكار تنطلق من جوانبه وتنطوي عليها جوانحه .

الاساليب الاجتماعية والاساليب العقلية :

ومن ثم فان الباحث في مجال الايديولوجيات لا يتوقع أن تنكشف له النتائج على صورة تركيبية منطقيـة ، أو على صورة عقائدية متماسكة من خلال العمل الميداني – سواء أكان من قبيل المسح أو منصباً على عينات مختارة – ، اللهم إلا اذا تدخل في عملية الصياغة اصحاب مذاهب ونظريات عقائدية يحاولون اقحامها على أفكار المواطن العادي ، وهذا نوع من الإيحاء العقائدي الذي قد ينطوي على تفسير أو آخر للحركة القومية فيرتفع كالشعارات عن طريق السلطة المؤقتة ، ثم لا يلبث أن ينهـار ويتلاشى في غمضة عين – كرواسب وزبد الصراعات القومية المستعرة – إذا لم يكن على ارتباط وثيق بوقائع الوجدان الشعبي العام .

مَصَادِرُ الإيديُولوجيَّة العَرَبيَّة

وعلينا قبل أن نكشف عن وقائع الوجدان العربي أن نحدد مصادر أو منابع الايديولوجية العربية أو الأصول التي تصدر عنها الافكار والمشاعر والاحكام التي تحدد أنماط السلوك العربي . وقد لا نستطيع الاحاطة بهذه المصادر كلها لما ينطوي عليه هذا المسلك من خطورة لأنه يهمل بعض المصادر المجهولة لدينا والتي توافدت تأثيراتها على المنطقة العربية من خلال عمليات الانتشار الثقافي التي وجدت في هذه المنطقة مجالاً فريداً للتقابل والاختمار والتفاعل في بيئة مكانية هي نقطة التقاء بين قارات ثلاث . ولهذا سنكتفي باستعراض أهم هذه المصادر وهي : العروبة ، والدين ، والبيئة المكانية والثقافية ، واللغة ، والتاريخ المشترك ووحدة المصير .

وليس هناك شك في أن هذه المنطقة التي يسكنها العرب تشكل وطناً لهم يمتد من المحيط الى الخليج العربي ، وتعتبر في الجزء المركزي منها — أي ما يسمى بالشرق الادنى — منطقة هبوط الوحي ؛ وحياة الارض فيها ترتبط بأحكام السماء وتصطبغ بلونها ، وهي منطقة ظهور الأديان السماوية منذ دين ابراهيم عليه السلام الى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا اصطبغت الحياة اليومية للمواطن العادي في هذه المنطقة بصبغة روحية ذات رباط وثيق بأحكام السماء ونذر الغيب

ومواعيد النبوّة وأقطاب الحياة الروحية ومثلها. يتساوى في هذا الشخص الممارس للعبادات وغير الممارس لها في الاديان الثلاث وغيرها ، وبعبارة أخرى فان الخشية من عقاب السماء بعد الموت ولقاء الله في عالم آخر غير منظور ، يعتبر امتداداً حتمياً ومنطقياً لحياتنا هذه ، قد صبغ حياتنا في هـــذه المنطقة بصبغة الدين وبالشعور الديني على وجه العموم .

العروبة والاسلام :

ولما كان الاسلام هو دين أغلبية المواطنين في المنطقة وكانت العربية لغة القرآن وكان روح الاسلام وثقافته هما لحمة الثقافــة العربية وسداها منذ ان دخلت الامـــة العربية طور التكوين القومي منذ أربعة عشر قرنا مضت ، فأثرى الاسلام تركيبها القومي الداخلي وأمدها بامكانات جديدة في مسيرة تطورها ، فان أول ما يتبادر الى اذهاننا هو التساؤل عن العلاقة الجدلية بـين الاسلام والعروبة ؟ فهل يتعارض الاسلام مع العروبة ، أو تشتق العروبة من الاسلام ، أو ينطوي أحد الطرفين على الآخر ؟؟

ان الاجابة عن هـذا السؤال تلقي ضوءً كاشفاً على مضمون التيار الوحدوي العربي ومداه ، من حيث أن **الوحدة العربية** – كحركة قومية عظمى ضاربة في المنطقة تستمد وجودها من كيان عربي انصهرت حياته وآماله في بوتقة تاريخ مشترك طويل ولغة قومية حية معبّرة عن متطلبات الحضارة والحياة والعلم والفن – هي

الركيزة الأولى في بناء الأيديولوجية العربية .

لقـد تسرع لفيف من المثقفين ففرّغوا معنى العروبة من كل محتوى ديني ، ونادوا بعلمانية القومية العربية تأثراً منهم في ذلك بمبادئ الثورة الفرنسية العلمانية وخضوعاً لبعض العوامل المحلية التي تخوّف القوميون من خطورة استغلال الاستعمار لها في إشاعة الفرقة وإعاقة التيار الوحدوي .

ولكن الحقيقة التي لا مناص منها هي أن اللغة العربية — وهي وسيلة التفاهم بين العرب — لا يمكن ان تزدهر أو تحيا بدون دستورها الاول أي القرآن .

ولهذا فان الكثيرين ممن أسهموا في حركة إحياء التراث العربي في الفترة الاخيرة من العصر العثماني وقبل الحرب العالمية الاولى ، وكانوا من رجال الدين المسيحي كالأب أنستانس ماري الكرملي — قد درسوا القرآن واستمدوا لغتهم منه مع احتفاظهم بعقائدهم ، وهذا يعني ان العربي لا بد له — إذا أراد ان يحتفظ بصلة « العروبة » — ان يلتزم لغةً وثقافـةً وحياةً بالقرآن . وهـذا التخريج يفضي بنا الى التمييز بـــين الإسلام بالمعنى العقائدي ، والاسلام بالمعنى الحضاري .

الاسلام العقائدي والاسلام الحضاري :

فالمسلم بالمعنى العقائدي هو الذي يؤمن بالعقيدة الاسلامية ويلتزم

بأداء عباداتها وفرائضها ، والمسلمون العقائديون يشكلون الغالبية العظمى من العرب .

أما المسلم الحضاري فهو الذي يدين بدين سماوي آخر غير الاسلام ولكنه يدخل في الزمرة العربية ، لانه يشترك مع الغالبية في اللغة والتاريخ المشترك والآمال والاهداف فضلاً عن البيئة المكانية ، ويغترف مع المسلمين جميعاً من تراث فكري وثقافة واحدة ، وعلى هذا نجد اسماء كثيرة من أهل الذمة شقت طريقها في الدول الاسلامية عبر التاريخ ومنهم الوزراء والاطباء والمفكرون ، وهؤلاء جميعاً قد أظلتهم الحضارة الاسلامية وجاءت أفكارهم وليدة البيئة الاسلامية وثمرة للانتاج الثقافي الاسلامي في ذلك الوقت .

وعلى هذا النحو فان العرب : مسلمون وغير مسلمين عقائدياً يندرجون جميعاً تحت معنى الإسلام الحضاري . ونحن في محاولتنا تفسير المحتوى الواقعي للعروبة وبيان كيف أنه يرجع الى الاسلام ، لا نلتمس تفسيراً أو تحليلاً متعسفاً ، فالحق أن المواطن العربي بعامة لا يكاد يفصل بين معنى العروبة ومفاهيم الاسلام ، وعلى الباحثين — إذن — ان يتعرفوا على مصدر هذا الفهم الشائع عند غالبية الشعوب العربية .

وحدة الدين :

على ان ثمة تفسيراً لمفهوم الاسلام قد يقنع المتصدرين للدعوى العلمانية ومن التف حولهم ، وهو تفسير نابع من ذات النصوص القرآنية :

لما كان المصدر الأوحد للاديان السماوية هو إلـه واحد ، فمن ثم ينبغي ان يكون مـا يصدر عنه من رسالات متطابقة من حيث الجوهر ، ويكون اختلافها بحسب الزمان والمكان ومناسبات النزول فحسب ، وهذا يفرض علينا أن نتناول هذه الأديان من منظور واحد تكاملي ، إذ لا تعارض بين اليهودية الحقة والمسيحية الحقة والاسلام الحق ، بل لا بد ان يكون ثمة تلاق وارتباط وتكامل بين هذه الاديان جميعاً .

ونحن نجد في القرآن تصديقاً لهذا البرهان النظري البحت ، وتواجهنا آي الذكر الحكيم بما نزل على الرسول الكريم يوم الفتح :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1] .

والمقصود بداهة بهذا القول الإلـهي، ان الله قد ختم رسالاته بالاسلام وانه أكمل به معنى الدين .

ولما كان الله عز وجل قد ذكر في محكم آياتـه ان الرسالات السماوية بدأت بإبراهيم أبي الانبياء[2] وان ابراهيم كان مسلماً حنيفاً ولم يكن يهودياً او نصرانياً[3] ، وان الاسلام الذي جاء

---

(١) ٥/٣ .

(٢) « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (سورة ٣٠ الآية ٣٠) .

(٣) « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ومـا كان من المشركين » سورة رقم ٣/ آية ٦٧ وكذلك الآية رقم ١٣٥ — سورة ٢

به الرسول الكريم ، تلقياً من الوحي ، هو ختم للاسلام الذي بدأ به إبراهيم – يكون معنى هذا أن مطلق الدين السماوي هو « الاسلام » كما ورد في الذكر المبين « إن الدين عند الله الإسلام »[1] .

فقد بدأت مسيرة الاسلام بإبراهيم وتتابعت مسيرة الوحي من السماء وتمثلت في مواقف عدة ، منها ثلاث رئيسية هي الموسوية والعيسوية والمحمدية ، فثمة أربع مراحل كبرى للاسلام هي : الإسلام الإبراهيمي الحنيف ثم الإسلام الموسوي ثم الإسلام العيسوي ثم الإسلام في مرحلة الختم على عهد الرسول .

نزل الوحي على موسى لهداية قومه وتبصيرهم بشريعة الله وتميزت التوراة بطابعها الواقعي الحي ، ولكن اليهود فسقوا وبدلوا الكلم من مواضعه ، وقست قلوبهم واعتدوا على أنبيائهم ، فكان من الضروري أن ترسل السماء كلمتها بدين الحب (الله محبة) دين عيسى بن مريم لكي يصلح قلوب بني اسرائيل ، ولهذا جاء مفرغاً من الشرائع التفصيلية .

وجاء الاسلام المحمدي ليجمع بين التيارين : المادي والروحي

---

(١) سورة رقم ٣ آية ١٩ وراجع ايضاً الآيات التالية التي تعطي لنا في مجموعها صورة متكاملة عن وحدة الدين ، ويشير الرقم الأول الى السورة والرقم الذي يليه للآيات : ٢/٦٢ ، ١٠٩ ، ١٣٥ ، ١٤٠ = ٣/١٩ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ١١٣ ، ١٩٩ = ٤/١٢٥ ، ١٦٢ = ٥/٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦٩ = ٢٨/٥٢ ، ٥٣ = ٢٩/٤٦ = ٣٠/٣٠ = ٤٢/١٤ = ٤٨/٢٨ ، ٢٩ = ٩٨/٥ .

وليتمّ الشريعة ، وهذا هو معنى الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) وقول الرسول الكريم « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وفي هذا التفسير رد على الذين يتشككون في معنى انتهـاء الرسالات بالرسول الكريم ، فالله سبحانه وتعالى قد اتم نوره وأكمل كلمته بالقرآن الذي جمع بين دفتيه قواعد السلوك والهداية في الدنياو الآخرة.

وهكذا نجـد في مقولة « وحدة الاديان » على النحو الذي سقناه — تفسيراً وتبريراً لمـا يشعر به المواطن العربي العادي من حيث انتمائه الأول الى الاسلام ، وانه اذا فرّغنا العروبة من محتواها الاسلامي بالمعنى الحضاري على الأقل لن نجد لها معنى لدى هذا المواطن الذي هو محور الدراسة للكشف عن ايديولوجيته .

ومع هـذا فان الاديان الأربعة الكبرى تصل في النهاية إلى نتيجة واحدة الا وهي التوحيد فاذا اضفنا الى ذلك ان «الاسلام يعني التسليم بأوامر الله ونواهيه واطاعتهـا والانقياد والاستسلام لله عز وجل ... وجدنا انه لا يوجد في هـذا المعنى للاسلام مـا يبرر ما حدث من احتكاكات تاريخية بين أصحاب هـذه الاديان السماوية » .

نخرج من هذا العرض الى ان التجانس والتماسك الذي يؤسس مفهوم الامـة العربية ويصلح أساساً لقيام دولة عربية واحدة ، انمـا يستمد مقوماته الواقعية من الاسـلام كدين وكحضارة على السواء يرسم معالم الطريـق لسلوك المسلم في مضمار الحياة

وينطلق من حقيقة راسخة هي ان الله كـّرم هذا الشعب العربي فانزل القرآن بلغته[1] وبذلك رفع قدره في نطاق الأمة الاسلامية على العالمين[2] .

وهكذا اصبح الاسلام عقيدة وسلوكاً ، يشكل البنية الأساسية للحياة العربية وقد أسهم في بنائه المسلمون وغير المسلمين من العرب ، فكان لهم تاريخ وكانت لهم امة وصار ركيزة أساسية من ركائز الوجود القومي العربي ، ويعتبر المنطلق الأول نحو بناء مستقبل عربي للمسلمين وغير المسلمين من العرب . فليس هناك شك إذن في أن المواطن العربي انما استمد معنى الامة ومدلولها من مضامين الاسلام دين الأغلبية العربية بالاضافة الى وحدة اللغة والاصل والتاريخ المشترك . وهنا نجد ان غير العربي أمة ونسباً لا يلبث – حينما يحويه التجمع العربي الكبير – ان يكتسب من معينه قوام خلقه وصفاته المزاجية ما دام يتنفس في جو الحضارة العربية ذات الثقافة الضاربة في أعماق التاريخ والمتفتحة على مستقبل مفعم بالأمل والتقدم والتي بلورتها الظروف التاريخية والمكانية ووحدة المصير والحركات الثورية من أجل قيام نظام سياسي عربي موحد .

ومما يجدر الاهتمام به ان الاسلام هو أول الأديان وآخرها الذي احكم النظر في تنظيم هذا البعد السياسي والاجتماعي ، فبعد

---

(١) «انا انزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » س ١٢/ آية ٢ .

(٢) «كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » سورة ٣/ آية ١١٠ .

ان اتم بناء الفرد اخلاقياً اتجه الى وضع الحدود والمعايير لتنظيم علاقاته مع اقرانه من البشر على اساس من العدل والحرية والمساواة . فظهرت صورة التكافل الاجتماعي في محيط القومية العربية الواحدة الرامية إلى إقامة دولة ذات سيادة تحكم الأقاليم العربية وترعى شئون هذه الأمة المتماسكة ، ولذلك كان من الضروري ان يكون لدى القائمين عليها تصور ما للنظام السياسي لهذه الدولة .

وعلى هذا النحو ، فبعد ان رتب الاسلام للفرد حقوقه وواجباته وافاض في توجيهه الى المثل والغايات الاخلاقية ، عني بان يصب هـذا كله في بنية النظام السياسي للأمة دون استبداد أو جور على حقوق الأفراد .

النظام السياسي

والكلام عن شكل هذا النظام يدفع بنا إلى أسلوب المقارنة المطروق بين النظم السياسية على اختلاف أشكالها . والحق ان النظـام الاسلامي السياسي اقرب الى الديمقراطية منه الى سائر واشكال النظم الاخرى ، وهي ديمقراطية قائمة على الشورى[1] .

ولكن القرآن والسنّة لم يحددا شكل النظام بصورة قاطعة ،

---

(١) «وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون» ٤٢/٣٨ .
«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولـك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين» ٣/١٥٩ .

فترك للمسلمين تحديد معالمه عن طريق الاجتهاد العقلي ، ولم يكن العصر حينذاك يسمح بتطبيق الديمقراطيـة الاثينية على الرغم من ان الفكر السياسي الاسلامي كان قد عرض لها .

واذا كان المسلمون قد سلكوا من قبل (بعد عهد الرسول والخلفاء الراشدين) طريقاً يتعارض مع الديمقراطية الحقة واتبعوا اسلوب الحكم الفردي الاستبدادي أحياناً ، فان ذلك لا يعني ان النظام الممارس يستمد شرعيته من احكام الدين[1] .

فالقرآن ينص على ضرورة الحوار بين الآراء المختلفة في غير العقائد أو في غير ما ورد فيه نص قرآني واضح صريح ، ولا يعني الحوار هنا مجرد الاستشارة ولكنه حوار لا بد ان ينتهي الى العمل برأي الأغلبية المطلوبة التي يشار اليها **بالاجمـــاع** في أصول الأحكام .

ولما كانت الدولة في هذه العهود غـــير مرتبطة ارتباطاً عضوياً وثيقاً بجمهور المسلمين أو برجل الشارع العـادي بصفة خاصة ، لهذا فقد ُفسر الاجماع عند البعض على أنـــه اجماع أهل الحل والعقد أي ذوي السلطة والمفكرين والفقهـاء وغيرهم ، ولكن ما ينطبق على هذه العصور التاريخية لا يجب بالضرورة أن ينسحب أيضاً على عصرنا هذا ، لا سيما وأن النصوص الاسلامية قد تسمح في رأي

(١) ونشير هنا الى ان حكم الفرد المستبد يتساوى فيه الحكم الوراثي والحـكم الجمهوري على السواء، وقد تستقيم الديمقراطية في ظل الملكية أو الجمهورية اذا ما سهر الحاكم على تدبير شئون الرعية وتطبيق أحكام الشريعة .

البعض بأن تكون الشورى على مستوى القاعدة الجماهيرية العريضة .

والأمر الثاني أن رئاسة الدولة أي الامامة أو الخلافة لا بد أن تتم بالبيعة سواء أكانت صورية في كل نظام وراثي، أو عامة فينشأ عنها النظام الجمهوري[1] .

---

(١) وقد تحقق هـذا الشرط خلال عصور الاسلام التاريخية بالمبايعة الصورية في نطاق الوراثة الأسرية ولم تكن الحقبة التاريخية الماضية تسمح بغير هذا النسق الملكي الوراثي. على أن أصحاب مذهب التشيع قد قصروا الإمامة (رئاسة الدولة الدينية والزمنية) على الوراثة الدموية لرسول الله .

وكان البعض أيضاً قد قصرها على القريشيين عامة وليس على بني هاشم خاصة الأمر الذي تصدى المعتزلة لشجبه في إبانه .

أما الوجـه الآخر للبيعة التي تصدر عن أهل الحل والعقد أو جمهور المسلمين عامة ـ تطبيقاً لمبدأ الإجماع ـ فقد تبناها فريق من المجتهدين وقصدوا بهـا التدليل على أن الاسلام يؤيد النظام الجمهوري الديمقراطي .

ونحن في بحثنا هذا إنمـا نعرض لآراء الطرفين التزاماً منا بمتطلبات البحث العلمي غير أننا نلاحظ بهذا الصدد ما يلي :

أولاً : أن الاسلام لا يعطينا صورة معينة ومحددة لنظام الحـكم السياسي . بل لقد حرصت نصوصه على الإشارة إلى جملة من المباديء العامة الـتي ينبغي للمسلمين الاسترشاد بهـا في كل زمان ومكان ، وبذلك تركت مجالاً لتطويـع النظام حسب دواعي التطور التاريخي للبشرية وفي ثناياها الأمة الأسلامية. وهنا نلمس مواطن الحكمة في أعمق صورها .

ثانياً : انه مهما اختلفت آراء الفقهاء حول شكل النظـام السياسي وبنيته ، فاننا نجد اتفاقاً بين جمهورهم على أن الإمامـة لا تخلع الا على مسلم يتميز بصفات كثيرة يعددهـا الفقهاء كالماوردي وغيره في كتبهم ومنها الورع والتقوى والفضيلة واكتمال العقل ونضج الفكر، والعلم بشئون الدين والدنيا الخ ...

وهكذا تؤسس الديمقراطية الاسلامية شعار **الحرية** في الوجدان العربي وهي الركيزة الثانية للمجتمع العربي الاسلامي، اذ أن ديمقراطية الاسلام انما تقوم على أساس من الحرية والعدل والتزام حدود الله في المجتمع ، واقامة توازن بين حق الله وحقوق الناس وتبني موازين العدالة الاجتماعية تحقيقاً للتكافل الاجتماعي واشاعة الأمن والاستقرار في نفوس المسلمين في ظل نظام يؤمن بعدالة توزيع المنتج الاجتماعي عن طريق تطبيق مبدأ الحلال والحرام ـ والالتزام بالحدود التي شرعها الله حماية للضعيف من القوي وللفقير من الغني .

ونحن اذا دققنا النظر في هذه التعاليم الخالدة خرجنا منها بصورة واضحة عن أُسس النظام السياسي والاجتماعي في الاسلام وهي تحدد في مجموعها شكل هذا النظام الحري بأن يُسمى باسم « **العدلية الاسلامية** » هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لما كان الاسلام ديناً سماوياً وانه سابق على المذاهب الاشتراكية المعاصرة تاريخياً من حيث اللفظ والمفاهيم السائدة ، فاننا لا نرحب كثيراً بوصف النظرية الاسلامية بأنها اشتراكية أو داخلة تحت المد الاشتراكي .

ذلك ان الاسلام يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً على أسس الحرية والعدالة والمساواة ، بحيث لا يتقيد الا بتعاليم السماء التي تتطابق مع فطرة الانسان وفكره الحق ـ فكأن النظام العام الذي يستمد جذوره من القرآن يعتبر نظاماً انسانياً بالدرجة الاولى رغم أن مصدره إلـهي .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان الديمقراطية الاسلامية – كما أشرنا – تقيم وزناً لآراء المجتمع وأفراده ، وهي ليست من نوع الديمقراطية الشعبية الموجهة التي تعصف بالحرية والديمقراطية وتخضع البشر لأنساق من التنظيم الحديدي القـــائم على البطش والإرهاب تحقيقاً لمزيد من التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فكأنها تقضي على حرية الانسان وسعادته وأمنه وطمأنينته في مقابـل إحداث مزيد من الرفاهية والتقدم لهـذا الانسان نفسه ، وثمة تناقض صارخ لا يستسيغه العقل ولا يرتضيه الوجدان .

والاسلام في جوهره لا يعترف بالتساوي المطلق بين الناس في الدخل[١] والثروة ولا في العلم والجهل ولا في مراتب التقوى[٢] بل المساواة الحقة انما تكون في حق المسلم – مهما كان مركزه – في الحرية والعدل وكفالة المعيشة الانسانية اللائقة بالبشر .

ولهذا فان القرآن ينص على أن الطبقات الفقيرة لها (حق) وليس احساناً في أموال الاغنياء[٣] .

وكذلك فهو يحذر أصحاب الثروات من منعها من التداول في السوق حتى يعم نفع دوراتها المالية المسلمين اجمعين وحتى لا تتركز

(١) « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » ١٦/٧١ « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده » ٢٩/٦٢ .

(٢) « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ٤٩/١٣ ومعنى الآية أن الناس يتفاضلون من حيث التقوى والصلاح ولكل منهم حسب تقواه .

(٣) « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ٧٠/٢٤ – ٢٥ « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » ٢٤/٣٣ .

الثروة في أيدي قلة تحتكرها فتخضع النظام السياسي لسلطانها[١] .

هذا فضلاً عما سنّه المشرع من فرائض كالزكاة ، وما أعطاه للحاكم من سلطة فرض المكوس والضرائب حماية للوطن من أعداء الخارج وعدم استقرار الداخل . واذا كان الاسلام يتجه بنظامه هذا — سواء من النواحي السياسية والاجتماعية والاخلاقية الى الموقف الوسط الذي أشار اليه القرآن[٢] ، هذا الموقف الذي تنتفي معه جميع صور العُدم أي الفقر المدقع وكذلك جميع صور الثروة والغنى الفاحش — الا انه لا يحاول مصادرة جسم رأس المال اذا كان قد حازه أصحابه عن طريق الحلال[٣] . وذلك خلافاً لما تلتزم به بعض المذاهب الاجتماعية الاخرى .

والامر الذي لا شك فيه أن الاسلام — على هذا النحو — إنما يتطابق في تعاليمه مع فطرة الانسان الحقة ، بلا غلو أو إسراف وذلك لأن البشر جميعاً يحبون التملك[٤] وهم يختلفون الواحد عن الآخر ، قدرة وكفاية ويصبح عدم الاعتراف بهذه

(١) «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» ٣٤/٩ «ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالاً وعدده، يحسب ان ماله أخلده » ١٠٤/١ — ٣ «ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» ٧/٥٩ .

(٢) « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ١٤٣/٢ .

(٣) « وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ٢٧٩/٢ .

(٤) « وتأكلون التراث أكلا لما » ١٩/٨٩ « وتحبون المال حباً جما » ٢٠/٨٩ .

الحقائق الانسانية نوعاً من المعارضة غير الطبيعية للانسان ولفطرته[1] ومع هذا فاذا أردنا التماشي مع العصر ومسمياته من حيث أن تجمع النظم المتقاربة تحت اسم واحد يولد قوة عظمى دافعة الى التقدم ، فيمكن لنا على — هذا النحو — أن نصف الاسلام بأنه دين اشتراكي في نطاق المعاني التي تشير بها تعاليمه ، أي أن تكون اشتراكية الاسلام نوعاً قائماً بذاته بين الاشتراكيات ، مع الاحتفاظ بالأولية التاريخية للاسلام على سائر النظم الاشتراكية أو أن نقول إن الاشتراكية المعاصرة ذات ملامح اسلامية ، لا سيما وأن سائر النظم الاشتراكية تشجب جميع صور الكسب بدون عمل ، ويتفق معها الاسلام في ذلك حينما يرفض الربا ويترصد أصحابه بالعقاب الشديد .

وهكذا نصل الى الركيزة الثالثة للايديولوجية العربية وهي تثبيت مفاهيم **الملامح الاشتراكية** بعد ركيزتي الحرية والوحدة .

---

(١) «فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله» ٣٠/٣٠ .

ونعني بها المعطيات المباشرة للوجدان العربي . فبعد أن تناولنا الأصول التاريخية التي تؤسس حياة هذه الامة العربية عبر التاريخ وعالجنا الموضوع بطريقة تحليلية ، واتضح لنا أن المعول الاساسي في تحديد مفاهيم الايديولوجية العربية هو ما ينطق به المواطن العربي من أفكار وآراء وتصورات وما يحس به من مشاعر تؤثر في حياته وفي أعماله وتسبغ على مواقفه لوناً خاصاً به قد لا يتماثل مع مواقف المواطنين في شعب آخر ازاء نفس المشكلات . بعد كل هذا نريد الآن أن نضع هذه المعطيات في صياغة أولية بسيطة تبدو كما لو كانت مستمدة من خلال حوار مع عدة أفراد من المواطنين العرب في بلاد عربية مختلفة .

وفي هذا الحوار نطرح تساؤلاً أولياً عن المعاني التي يفهمها المواطن العربي العادي من مفهوم العروبة ، هذا المفهوم الذي تجسده حركات الثوريين العرب وأعمالهم وتناصره جماهير الأمة العربية كمحرك لطاقاتها الخلاقة ، وأمل في قيام وحدة عربية من المحيط الى الخليج .

واستناداً الى ما سقناه من تحليلات متشعبة حول هذا الموضوع ، ومن رجوع الى مصادر عدة من بينها التراث ووسائل الاعلام

والخبرة والممارسة الشخصية للعمل العربي[1] فاننا نتوقع أن تكون اجابات المواطن العربي على النحو التالي :

١ — ان الفكرة المسيطرة على المجتمعات القائمة في هذه المنطقة تنطوي على إيمان راسخ بأن هذا المجتمع الانساني يسوده تيار جارف ينضح بالقومية العربية كحركة تاريخية وكمنطلق اساسي وأمل في مصير عربي واحد متماسك ، وهذا الوجدان العربي الحس هو كلمة المواطن العربي الأخيرة في حقيقة انتمائه الذي يؤثر في حياته بنية وشكلاً وحركة ، رغم ما يعترضه من عوائق ونظم وشعارات مؤقتة ومتعارضة .

---

(١) لقد انضم كاتب هذه السطور الى الرعيل الاول من رواد الحركة العربية وعاصر نشأة الجامعة العربية واشتعال الثورة الفلسطينية ومأساة التقسيم . وقد انشأ هو وزملاء له جمعية الوطن العربي سنة ١٩٤٤ ، واشرف على تحرير لسان حالها (مجلة الدفاع) بالاسكندرية وانضم الى حركة الاتحاد العربي واصبح نائباً لرئيس الاتحاد العربي بالاسكندرية . وقـــد قدم في هذه الفترة اول مشروع لإنشاء دائرة المعارف العربية الى المؤتمر الثقافي العربي الاول في لبنان سنة ١٩٥٠ وانضم الى جمعية التقريب بين المذاهب الاسلامية والى الهيئة العربية العليا لانقاذ فلسطين ، وتولى الاشراف على مكتب اللاجئين ومكتب النشر العربي واسهم في اعداد المتطوعة من الاسكندرية وامدادهم بالعدة والمـواد الطبية . واشترك في تأسيس نوادي الاتحاد العربي في البلاد العربية في العراق وسوريا وغيرهما كما اشترك في انشطة مكتب المغرب العربي في القاهرة والنشاط العربي بباريس . وزار معظم البلاد العربية محاضراً وداعياً الى حركة الوحدة العربية عن طريق سفارة العلم والتعليم بعد ان تولت الثورات العربية مهمة العمل الرسمي لتحقيق الهدف الوحدوي المقدس ، كما اسهم في حركة المـــد الاشتراكي ممارساً وداعياً ومحاضراً ومؤلفاً .

٢ — ان القومية العربية كمسلمة اساسية في الايديولوجية العربية تتخذ من اللغة العربية وسيلة للتفاهم والتماسك بين افراد الامة العربية . وتستند هـذه اللغة الى القرآن كمصدر ودستور لهـا . وقد أثْرَتِ السماء هذه اللغة فجعلت منها وسيلة للتعبير عن رسالتهـا فأصبح للقرآن مفهوم قومي عند العرب على اختلاف عقائدهم .

٣ — ان الأمة العربية تؤمن بجميع رسالات السماء وترى في الاسلام ديناً يوحد بينها على أساس من العدل[١] والتعايش السلمي مع أصحاب الأديان السماوية الاخرى ! ومن ثم فان الامة العربية تنبذ جميع صور التعصب الديـني والعنصري[٢] وترسي دعائم الاخوة والمحبة انطلاقـاً من سماحة الاسلام وتسامحه[٣] وهو عقيدة الغالبية العظمى من العرب ، وهو الجـامع للأديان السماوية اذا تُرجمت

(١) « ان الله يأمر بالعدل والإحسان » ١٦/٩٠ .
« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلهـا واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ٤/٥٨ .
« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ٥/٨ .
(٢) « ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » ٢٩/٤٦ .
« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ٢ / ٦٢.
(٣) « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ٢/٢٥٦

وحدة الدين على هذا النحو الى واقع ظاهر للعيان مؤثر في السلوك العام للأفراد وراء الشعائر والرسوم الظاهرة في كل دين من هذه الأديان .

٤ — لما كان المفهوم الديني هو البعد الأول في الحضارة ، لهذا فان أول ما يقابلنا هو ارتباط الحياة الدنيا ارتباطاً وثيقاً بالآخرة وبعالم السماء على وجه العموم وان الانسان لا يواجه الطبيعة أو غيره من البشر أو الكائنات الحية الاخرى مواجهة استقلالية تامة ، بل ان سلوكه على أي نحو انما يرتبط بنظام آخر غير منظور يشده في النهاية الى عالم آخر غير عالمنا ، ويشعر المواطن بان ثمة تنظيماً وعدالة في الخلق والتكوين وان سائر مخلوقات الله من جماد وحي انما صدرت عنه وفق تصميم الـهي وهي تسير بتدبير وحفظ وعناية الـهية الى نهايات معلومة ، والآجال والأرزاق مقدرة وتخضع لحساب الـهي دقيق .

٥ — ان الله تعالى خلق الانسان في أكمل صورة واستخلفه في الأرض . وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن ارادته وحقيقة خلقه لانبيائه ووجّه الانسان الى إطاعتها تحقيقاً لمصلحته ، من حيث انها تتمثل في قيم للسلوك السوي تتفق مع فطرة الانسان الحقة لتحقيق صلاحه كفرد وتقويم علاقته مع الآخرين في المجتمع بما يكفل البناء

والتنظيم وحفظ التماسك لهذه الأمـــة ، ومنحه العقل للتمييز بين الصواب والخطـــأ والخير والشر ، وحمّله الأمانة الكبرى أي الإرادة[1] فأصبـح بذلك مسؤولاً عن سلوكه في الحياة الدنيا ومن هنا تبلورت المسؤولية الفردية (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[2] .

٦ — ان استخلاف الانسان في الأرض يصبح بلا معنى اذا لم يكن يعني بذل الجهد لتنظيم الحياة الدنيا ، أي العمل على تقدم البشرية ورقي المجتمعات الانسانية . ولا يـــتم هذا الا بالعمل ، فالعمل المنتج أي الصالح هو مركبنا الى عالم الآخرة . وهكذا تعتبر حياتنا الدنيا رحلة الى الآخرة إذ هي مرتبطة بالجزاء الأخروي .

٧ — ان العمل الصالح هو الذي يتجه الى الحـــلال وينبذ الحرام وقد حدد الله لنا ذلك — فالحلال بيّن والحرام بيّن — واوضح لنا مستويات الافعال الفاضلة واحكامها وكذلك اضدادها على مستوى الدولة وعلى مستوى الفرد .

٨ — ان الاخلاق سواء أكانت عامة أم فردية تصدر ضوابطها عن مبدأ عام وهو قول الذكر الحكيم « وجعلناكم أمة

---

(١) « وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة » ٢/٣٠ .

(٢) « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين ان يحملنهـا وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولا » ٣٣/٧٢ .

وسطا » « أي لا افراط ولا تفريط » ؛ والشعور بأن العرب أمة وسط يتخلل حياتهم الاخلاقية والسياسية على حد سواء ، ونحن نميز بين قيم الاخلاق ومثلها وكذلك بين ما تنطوي عليه الطبائع من خلق وسمات وأمزجة مؤثرة في السلوك ايضاً . ويميز المواطن العادي بين الفلسفة الاخلاقية التي قد لا يفهمها ، والاخلاق العادية ومثلها كما يمارسها هو وأضرابه ، غير أن المثل العليا الاخلاقية التي يتعمق مضامينها المثقف العربي وتنضح بها العقائد والمعاملات في الاسلام ، انما تتخذ مسارها الضاغط وغير الملموس في التجربة الشعورية للمواطن العادي وهي تتمثل في : سيطرة العقل على الارادة وذم الهوى وقمع الشهوة والغضب في نطاق تحصيل الوسط العدل بحيث تتحقق للمرء عن طريق العلم والعمل فضائل رئيسية هي العفة والشجاعة وسيطرة العقل التي تنشأ عنها الحكمة ؛ وهذه الفضائل الاربعة تصل بالمرء الى مرتبة العدالة في سلوكه الحيوي مع نفسه ومع الآخرين ، فاذا أضيفت المحبة الى العدالة خرجت لنا الصيغة الفاضلة التي تعتبر نموذجاً لأخلاق الكمال المثالي عند العربي المسلم ، كما تنطوي هذه الصيغة على فضائل موروثة ومكتسبة تعتبر لازمة للخلق العربي يحسها العربي في وجدانه في جميع الظروف والأحوال وهي على سبيل المثال لا الحصر : النجدة والوفاء

بالعهد والبساطة والترفـــع والصبر على المكاره والجود والكرم والإيثار[1] والنظرة الواقعية والتسامح والسماحة والتواصل والتراحم والانتصار للحق ونصرة المظـلوم والضعيف مـع التمسك بالحرية سواء بمعناها الفردي أم العام في مواجهة الحاكم والتغني بالامجاد ومدح الفروسية بما تنطوي عليه من معاني الفتوة والإباء والشمم والتغني بالارومة ووضوح النسب دون تعصب أو تحيز مذموم .

على أن هذه الاخلاق بنوعيهـا الفردي والاجتماعي قد وجدت لهـا متنفساً في النصوص القرآنية ، وهي تشير الى الوقائع البسيطة للشعور الاخلاقي لدى المواطن العادي من منظور مراتب الحياة الاخلاقية التي تحياها النفس، ويشير القرآن إلى المرتبة الدنيا الغريزية للاخلاق التي تتحكم فيها النفس الامّارة بالسوء[2] فاذا استيقظت النفس اللوامة [3] أي الضمير — وهو العقل في ممارسته للأحكام الخلقية،وهذه هي مرتبة الاختيار الحر في الحياة الاخلاقية— يرى المواطن العادي ان لا معنى للاخلاق أو للتكليف الشرعي بصفة عامة اذا لم يكن الفرد حراً يخضع فعله للثواب والعقاب .

---

(١) «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» ٩/٥٩ .

(٢) «وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء» ١٢/٥٣ .

(٣) «ولا أقسم بالنفس اللوامة» ٧٥/٢ «وهديناه النجدين» ٩٠/١٠ .

فاذا ما استقرت في النفس معاني الاخلاق القويمة وأصبح الخير لازماً لسلوكها ، تزكّت وارتقت الى مرتبة التقوى وهي مرتبة النفس المطمئنة[1] ، وأخيراً حينما تتأصل في النفس معاني الخير والحكمة والعدالة والسلام النفسي فانها تصل الى مرتبة السكينة[2] وهي مكانة الأولياء والقديسين والشهداء .

وأياً ما كانت قيم الاخلاق فانها لا بد أن تكون ذات تأثير في الفعل ، أي في السلوك حتى تستقيم حياة الفرد والمجتمع على السواء .

٩ — إن الدولة العربية هي التعبير النهائي لمنطق الثورة الوحدوية ولا بد للثورة أن تظل قائمة حتى يتحقق هذا المصير الذي تنشده الأمة وهو قيام النظام السياسي الواحد على أساس الشورى ، أي على أسس ديمقراطية جمهورية[3] تقوم على ركائز الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وتنبذ الصراع الطبقي وتحقق السلام الاجتماعي ابتداء من الخلية الاولى وهي الاسرة — التي هي أساس تكوين الأمة العربية — وقد تحقق استقرارها وتماسك بنائها عن طريق التشريعات الدينية والمدنية .

(١) « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي » ٨٩/٢٧ — ٣٠.

(٢) «هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » ٤٨/٤ .

(٣) هذا إذا انعقد الإجماع على هذا المطلب — كما سبقت الإشارة .

ولما كان الانسان العربي يواجه عالماً انتفت فيه الأبعاد نتيجة للسرعة المذهلة في وسائل المواصلات ، لهذا فانه مطالب بأن يكون على وعي بصلته بالشعوب الاخرى المجاورة لكي يتحقق الاستقرار السلمي بين شعوب المنطقة. وهذا هو مفهوم السلام العام ؛ فلا يجنح العربي الى الحرب الا دفاعاً عن الحمى ، وانتصاراً لمظلوم دون بغي أو اعتداء[1] ويتضامن مع النظم الشبيهة بنظامه حفظاً لمكانته بين الكتل العالمية دون ذوبان مُضَيِّع أو ارتباط مهين مع أي اتجاه يقضي على تراثه التاريخي والعقائدي .

وهذه الوقائع النابعة من الشعور العربي وهي : المساواة والحرية والعدالة والسلام مع واقعية في الفكر واتزان في السلوك ، تتفاعل فيما بينها ويقوم على أساسها مجتمع له صفة التماسك العضوي ، وتكتسي حياة أفراده بطابع روحي متأصل ووجدان حمس. هذا فضلاً عن وجود صلة جدلية بين هذه الوقائع الأربع في الوجدان العربي : فالله تعالى قد خلق البشر متساوين ومن ثم تشتق الحرية كحق إلـهي من المساواة بين الخلق ، ويأتي العدل ليحفظ التوازن بين المساواة والحرية وينتج عن هذا كله حق المواطن والامم جميعاً في سلام عادل دائم .

---

(١) «ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين» ٥/٨٧ .

١٠ — واذا كانت الدولة العربية تسعى الى اقرار السلم ، فان المعاملة يجب ان تكون مثلية وهنا يظهر مبدأ القـوة المتمثل في فريضة الجهاد (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[١] ولا يكون التصالح وحفظ العهد[٢] الا مـــع الذين يقبلون نفس المبدأ دون انتقــاص أو تحيف على حقوق الأمة ومجالها الحيوي .

١١ — ان المواطن العادي يشعر بانه يجب ان يتعلم للقضاء على مرحلة التخلف ، وتعليم الأبناء حسب مناهــج صالحة للعصر مع ربط بينها وبين التراث ، وهو الطريق الصحيح الى الكمال المنشود وازدهار العلم العربي (اطلبوا العلم ولو في الصين) (طلب العلم فريضة) ؛ ومن ثم فان المواطن العربي يشعر بأنه في مواجهة الحضارة الغربية والتكنولوجيا ينبغي له ان يتعلم الكثير مع احتفاظه بشخصيته وهكذا يتم إحداث موجــات صاعدة ومتلاحقة من التقدم في الوطن العربي في ظل تكامل اقتصادي وطيد الاركان وقائم على تخطيط علمي مستنير ، مـــع ضرورة الحذر واليقظة في وضع السياسات الاقتصادية حتى لا تتسرب ذئاب الاحتكار والرأسمالية الى الثورة القومية فتسيطر على ثرواتها الوطنية ويصبح الوطن العربي مرة اخرى عرضة لأبشع صور الاستعمار الجديد وهو الاستعمار الاقتصادي .

---

(١) ٨/٦٠

(٢) «وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم» ١٦/٩١ «ان العهد كان مسؤولا» ١٧/٣٤.

١٢ – لما كان رصيد العرب من التخلف كبيرا ، سواء في الفكر أو في الماديات أو في الاوضاع الاجتماعية ، وحتى في بعض المفـاهيم الدينية الجامدة التي لا تزال ترفض فتح باب الاجتهاد ، فانه يتعين احداث ثورة ثقافية وثورة اخلاقية الى جوار الثورتين السياسية والاجتماعية للعودة الى الينابيـع المطهرة وتطوير حياتنا وفق حاجات العصر ومتطلباته دون سيطرة الافكار المستوردة ، حتى نتجنب الوقوع في مخالب الغزو الثقافي والاخلاقي ، وبالجملة يجب ان تتسم افكارنا وتصوراتنا بطابـع الحركة وأن تشتق كلها من واقع المجتمع ومصيره .

١٣ – ان الحاكم العربي الديمقراطي مطالب من المواطنين بأن يكون دائماً على مستوى ثقة الجماهير فلا يظهر غـير ما يبطن ، ولا يتخذ حاشية سيئة السيرة مغـامرة ، فان اهتزاز صورة الدولة كنتيجة لاخفـاء الحقائق أو تشويهها يؤدي الى فقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وهو الأمر الذي يدفع بطوائف شتى الى الاغتراب السياسي والاجتماعي فتظهر موجات النقد الخفي والسخرية المقنعة واللامبالاة ، كأن أمر الدولة لا يعني هؤلاء المغتربين ، وهذا يحدث في الغالب عند المثقفين من فرط ارتكان الدولة الى أهل الثقة المتآمرين مع مراكز القوى الاجتماعية والسياسية ضد مصالح الكثرة الغالبة من أفـراد الشعب ، وعدم افساح مجـال العمل امام المستنيرين من أهل الكفاية ،

والوقوع في خطأ استعداء الجوع الكادحة على فئات المهنيين والمثقفين ، الامر الذي قد يحدث معه انفصام مرضي في المجتمع ويؤدي الى شيوع الهموم والقلق والضيق والتبرم والسخط والخشية من الحاضر والمستقبل لدى أجيال الشباب الصاعد وهم الأبناء الروحيون لعقل المجتمع وفكره الكامن في فئات المثقفين .

١٤ – ان كل المؤسسات الثقافية – مثل المدارس والجامعات وأجهزة الاعلام والفن – عليها أن تراجع مناهجها وأسلوبها في العمل بطريقة جذرية مخططة ، حتى تتناسب مع الأطر العامة للحركة الوحدوية العربية ، وحتى تخرج قطاعات الامة العربية الشعبية سليمة من معارك النضال بين النظم المؤقتة ومواقف الحكام المتعارضة في البلاد العربية .

المُعَارضَات المُعَاصِرَة للإيديُولوجيّة العَربِيّة الإسلاميَّة

لا شك أن الكشف عن الارتباط الجوهري بين الأديان السماوية الكبرى الثلاث وانضوائها تحت الاسلام : دين ابراهيم الذي اختتم بالوحي القرآني على عهد محمد الرسول الكريم (صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين) من ناحية ، ومن ناحية أخرى محاولتنا التمييز بين الاسلام العقائدي والاسلام الحضاري — اذا أردنا التجاوب مع العرب غير المسلمين الذين قد لا تقنعهم مقولة وحدة الدين — هذا الاتجاه تواجهه في عصرنا تحديات صارخة ينبغي لنا أن نعرض لبعضها حتى تستبين معالم طريق الحق :

١ — وتتمثل أولى هذه المعارضات في موجات الالحاد المادية التي تواجه الايمان الديني في عنف وضراوة ، فتنكر عالم الغيب وترفض فكرة الألوهية وتشجب الوحي ، وتلقي بالانسان مثله كمثل الجماد في أحضان طبيعة يستنطقها التطور المادي على ما يزعم الماركسيون وأتباع لامارك وداروين وسبنسر ، وليس الدين في نظر الماركسيين سوى أداة رجعية تستخدمها الطبقة الاقطاعية أو الحاكمة للضغط على الطبقات الكادحة واستغلالها ، فهم يزعمون أن العدالة لا تنزل من السماء بل تنبع من الأرض .

٢ – واذا كان الماركسيون والماديون على السواء قد أسفروا عن موقف واضح منكر للدين ، فان طائفة أخرى رغبة من أصحابها في التخفي وراء « العلم ومنجزاته المعاصرة» نادوا في القرن التاسع عشر بضرورة احياء التراث العربي الاسلامي بمعزل عن الاسلام وعقائده ، وهؤلاء هم العلمانيون الذين اختطوا هذا المنهج لإحياء العروبة المجردة من الدين ، ولم يكن هذا الاسلوب سوى وسيلة ناجحة لمقاومة الدولة العثمانية الاسلامية باسم العروبة ، ولم يلبث ان سار على الدرب مفكرون من أمثال شبلي شميل وسلامه موسى ، واسماعيل مظهر ، وغيرهم ، وقد أسسوا دعوتهم على مبادىء تفصل بين الدين والدولة، وترفع علم العروبة لتعزل العروبة عن الاسلام والاسلام عن العلم .

٣ – ان الشباب المسلم المعاصر يوشك ان يصاب بانفصام في شخصيته أو بالاغتراب على أقل تقدير، ذلك لان حياته اليومية تزخر بمنجزات الغرب المادية والمعنوية ، ففي كل يوم نطالع بأنباء إنجازات تكنولوجية جديدة فضلاً عن طوفان الكتب والنشرات والمجلات الصادرة عن الغرب والتي تكشف عن تياراته الثقافية وفكره النابض بالحياة . وهو مضطر الى الأخذ بهذه الأساليب التكنولوجية الحاملة للثقافة المعنوية للغرب دون اختيار منه ، ولا تزال

الصحف والاذاعة المسموعة والمصورة والكتب سادرة في تزويده بحضارة الغرب وثقافته بأبسط الطرق وأقربها منالاً ، واذا ما تلفت الى واقعه الحضاري فـــان عينيه ستصدمان بصور التخلف ، والتفسخ الاخلاقي والسطحية العلمية فضلاً عن الجمود الديني ورفض كل محاولة لإثراء الاسلام بما لا يمس جوهر العقيدة من مفاهيم الحضارة الغربية ثم هو يجد في الغرب فصلاً للدين عن الدولة بينما يلتزم المسلمون بعدم الفصل بينهما وذلك تطبيقاً لتعاليم الاسلام.

ونتيجة لهذا كله يتجه فريق من شباب المسلمين المتمسكين بدينهم الى الخضوع لثنائية نفسية صارمة ، فيكون الاسلام قبلتهم الدينية ، والغرب وثقافة حياته اليومية قبلتهم الحضارية ، وفي هذا مـــا فيه من تمزق للشخصية يسلبها عناصر القوة والصمود والفعالية الحقة .

أما الفريق الآخر فانه اما ان يتجه البعض منه الى موقف اللامبالاة والاغتراب ، فيحس أن ذاته وتكوينه الثقافي الغربي في غربة عن قيم الاسلام ومبادئه ، فيتجه الى الغرب وحضارته كلية جاعلاً منه القدوة والمثال ، وأمثال هؤلاء الشباب قـد تتملكهم عوامل الترفع الكاذب والتعالي على القيم الموروثة الخالدة .

وقد يتجه البعض الآخر من هذا الفريق الى « التجديد » في الاسلام فيصبغون الاسلام بصبغة غربية وينادون بمساواة المرأة بالرجل في

كل شيء حتى في الميراث وأداء الشهادة وتولي مناصب الدولة العليا والقضاء والفتيا الخ .

وذلك على غرار ما فعل كال اتاتورك الذي اعتصر الدين في تركيا فلم يبق منه الا اسمه بعد أن فصله عن الدولة .

وقد حدث ما يقرب من هذا في أندونيسيا وفي تونس مؤخراً ، على درجة أقل مما فعله كال اتاتورك .

يبقى فريق ثالث من الشباب وهم المتأثرون بدعوى « التحديث » وهم وسط بين اصحاب الجمود وأصحاب التغريب الكامل ، اذ يرون أننا يجب ان نطلع على كل ما انتجه الغرب من حضارات مادية ومعنوية ثم نعمل فيها العقل الاسلامي النقدي لنتخير من بينها ما يصلح لنا في اطار التعليم والمفاهيم الاسلامية وبمعنى آخر يجب الحفاظ على الشخصية الاسلامية ، على أن ننمي جوانبها بالعناصر المختارة والصالح من حضارة الغرب شاخصين بأبصارنا الى تراثنا القديم لاحيائه بروح العصر وبذلك تتجمع لدينا طاقة خلاقة أصيلة تدفع بنا في طريق التقدم والنمو الحضاري بطابع اسلامي مميز . فلا علمانية ولا فصل للدين عن الدولة .

وهكذا يستطيع المسلم المعاصر ان يواجه تحديات العصر ومذاهبه التي تتجه في مجموعها الى اقتلاع جذور الايمان والتضحية بالدين على مذبح العلم الكاذب أو الفلسفات المتوهمة ! فلا تعارض أصلاً بين العلم والدين أو بين الفلسفة والدين .

وستظل الفلسفة المنكرة للايمان تدور على نفسها وعلى غير هدى فيتوهم المثاليون انهم كشفوا عن الحقيقة ويعارضهم الماديون، ثم ينقض البناء على رؤوسهم جميعاً اذا غلب الشكاك على حرية الفكر، وقد يتحمس البعض للفرد وحريته كالوجوديين ويتحمس البعض الآخر للارادة الكلية التي تسحق الفرد وتقضي على كيانه الشخصي ولكن هذا الفكر في جملته مشوب بنقص خطير وهو أن صاحب المذهب انما يرصد الوجود من زاوية خاصة به، أما النظرة الكلية الشاملة التي يتوخاها الدين ولا سيما الاسلام – فانها بعيدة عن أن تكون في منال البشر بل هي من عمل الخلاق العظيم سبحانه، فهذا هو طريق الهدى للشباب، اذ يجب ان نؤمن لكي نعرف وليس العكس.

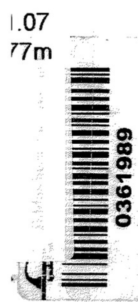
الخاتمة

هذه نظرات مجملة وخطرات فكر ، جمعت بين الاسلوب العلمي والنظرة الفلسفية وحصيلة الممارسة ، والخبرة في مجال العمل العربي ، توخينا من وضعها أن تكون محاولة أولية لاستشفاف مضامين الوجدان العربي والكشف عن معطياته المباشرة والعقبات التي تعترضه ما دامت تؤثر في سلوك الأمة ، حتى نستطيع أن نكون على بصيرة بخطوات المسيرة الشاقة نحو الغاية العظمى وهي الوحدة الشاملة ، مطلب الامة العربية الاساسي والمنطلق والغاية لجماهيرها شيبة وشبابا ، رجالا ونساء وقصارى ما أطمع في أن تصل اليه قيمة هذه المنجزات هي أن تكون علامات على الطريق نحو مستقبل مشرق وأفضل باذن الله .

والله ولي التوفيق

محتويات الكتاب

طبع في دار الاحد (البحيري اخوان) بيروت



.07
77m
0361989